

الفكر الوطني عند الأمير عبد القادر من خلال مراسلاته

إذا كانت الوطنية تعني التعلق بالوطن والذود عنه والاستماتة من أجله ، فإنّ الفكر الوطني قد تجلّى في سلوكات الأمير عبد القادر بوضوح ، بل تجذّر وتأسل مع الأيام حتى بعد توقف مقاومته ؛ أين تبني الأمير خلال مرحلة جهاده للمستعمر الفرنسي سلوكاً عملياً موثقاً في مراسلاته ، مشبعاً بالفكر الوطني الذي حمله على التصدي والمواجهة العنيفة للغزاة منذ وطئت أقدامهم أرض الجزائر والى غاية 1847 .

خلال تلك الفترة وما تلاها في المنفى ؛ عاش الأمير على صلة بكل ما كان يحدث بوطنه الجزائر ؛ ما ينمّ على مدى استيعابه للأحداث ، والتعامل مع مختلف الظروف التي كان يمر بها ؛ ومن ذلك مراسلاته لحكام بعض الدول وسلاطينها وملوكها وقناصلها ؛ يطلعهم على واقع القضية الجزائرية ، والممارسات الإستعمارية اللّإنسانية تجاه شعبه ، وعلى كل ما يتم بينه وبين قادة العدو من معاهدات وانتهاكاتها من جانب العدو ، وكأنّه يريد بذلك إقامة الحجة عليهم أمام الأجناس وأمام التاريخ . ثم يعرض عليهم التعاون بتبادل السلع رغبة منه في الحصول على ما تتطلبه ظروف الحرب كالذخيرة ، والوساطة مع فرنسا بهدف انقاذ المقاومة واستمرارها خاصة في سنواتها الأخيرة.

ويبدو الفكر الوطني بوضوح من خلال مراسلات الأمير المختلفة ، تلك المراسلات التي تُبرز مدى الحنكة السّياسية لديه وهو يقود الجيوش ، ويواجه العدو ، ويتحدى الصّعاب . ومراسلات أخرى من أرض المنفى ، دون أن تنثني عزيمته مرارة العيش وبؤس الحياة عن الرسالة التي تحمّل عبءها تجاه وطنه وشعبه منذ بايعه الناس بالإمارة .

ومن تلك المراسلات التي تحمل في طياتها العبارات المشبعة بالفكر الوطني لدى الأمير اخترنا بعض النماذج منها محاولين استقراءها والوقوف على كلماتها النابعة من أعماق وجدان رجل لم تفرقه المحن . وأهمها :

1 - مراسلته للماريشال بيجو

راسل الأمير عبد القادر الماريشال بيجو بحماسة وطنية فياضة ، وأسلوب صريح لا يقبل التأويل ، يُعرّفه بحقيقة من يواجههم ، مخاطباً إياه بهذه الكلمات : " الحمد لله وحده ، من ناصر الدّين عبد القادر بن محي الدّين الى الماريشال بيجو . أمّا بعد : فإن كانت دولة فرنسا ليس عندها من الأرض ما يكفي رعاياها وأرسلتكم لتغصبوا أراضينا وتبذلوا في ذلك نفوسكم وأموالكم ... فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم تعمهون وفي سبيل اعتدائكم تمشون ، والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها فنحن أهلها من المهد الى اللحد " (1)

في هذه المراسلة تبرز ملامح الفكر الوطني عند الأمير وهو يوجّه كلماته القوية الى بيجو بكل وضوح مؤكداً له أنّ إغتصاب الفرنسيين لأرض الجزائر يملي على أبناء هذا الوطن : الدفاع عن أرضهم ووطنهم بكل قوة وحزم ، من دون تردد ولا خوف ، ويعلمه بأن الحرب هي جزء من حياتهم .

لا يمكن أن تصدر تلك الكلمات إلا من رجل يرى في تحرير وطنه واجباً مقدساً تتمحي أمامه كل الصعاب والمثبطات .

## 2 — مراسلة الأمير الى القنصل البريطاني بتيطوان

جاء في هذه المراسلة : " ... من أمير المؤمنين سلطان النواحي الجزائرية والوهرانية والتلمسانية ... الى قونصو (كذا) الانكليز، القاطن بتيطوان ... سمعنا ان جنسكم من بيوت الملوك وان كلمة ريكم<sup>(2)</sup> وافية، وانه لا غدر فيه ولا خداع بعد العقد والميثاق .

فبعثنا لكم مكتوباً ترسله له صحبة مكتوبك ولما يأتيك الجواب تبعثه لنا ومضمونه ... أنكم اذا أردتم المزية الظاهرة التي تفوزون بها على كل الأجناس وتمتازون بها عن غيركم تلاقوننا في أي مرسى تريدونها من مراسي الجزائر ....

29 جمادى الاولى 1251هـ (3)

بأمر مولانا أمير المؤمنين نصره الله آمين (4)

في هذه المراسلة نرى كيف استعمل الأمير عبد القادر كلمة الجزائر ضمن عبارتي [ سلطان النواحي الجزائرية — و مراسي الجزائر ] ، وما استعمالها إلا دليلاً على رسوخها في وجدانه وفكره، وتفاعله مع إسم الجزائر ، وطن له ولشعبه ، هو سلطانه ومدبر أمر مقاومته ، المتصدي لأعدائه ، التواق الى تحريره .

## 3 — مراسلة الأمير عبد القادر الى الحكومة البريطانية

جاء فيها : " ... من أمير المؤمنين بالنواحي الوهرانية والجزائرية وما والاها الى طاعة تونس ... الى عظيم الجيوش الإنجليزية ... ورئيس ملوكهم الأفخر ، السلام على من اتبع رضی الحق ، وبعد : إننا كنا تعاقدنا مع كبير الفرنسيين على الصلح والمهادنة (5) ... ثم شرعوا في الخدع والغدر ونقض العهود مرة بعد مرة .

واليوم تحققنا من أخبار الذين خالطوكم ، أنكم أهل ميثاق وكلمة وافية ، وأنكم من بيوت الملوك ، فإن أردتم المصلحة العامة وتكون لكم المودة زيادة ... نتفق معكم على التسوق في أي مرسى أردتم من مراسي الجزائر ، ..... وإنا ملتزمون لكم من جانب البر بما تريدون ...

في 29 جمادي الأولى 1251 هـ (6) ختم الأمير عبد القادر (7)

من هاتين المراسلتين نلاحظ بأن الأمير عبد القادر وهو في السنوات الأولى من مقاومته ، على وعي كبير وعلم دقيق بما يجري على الساحة الدولية من تنافس استعماري بين الدول الأوروبية الكبرى يومذاك ؛ ومنها فرنسا وبريطانيا ، فيتصل بالمملكة المتحدة البريطانية من خلال قنصلها بمدينة تيطوان المغربية ، ومن خلال رئيس وزرائها ليكسب قربها إليه وتعاطفها معه . وذلك بإطلاعهم على المستجدات التي تمرّ بها الساحة الجزائرية ومنها نقض فرنسا لمعاهدة ديمشال .

وفي المراسلة دعوة الى التعاون وتبادل السلع وتوطيد العلاقات بين بريطانيا والأمير .

كما ابتدأها بعبارة أمير المؤمنين على كامل التراب الجزائري غرباً ووسطاً وشرقاً الى غاية الحدود التونسية ، وذكره لعبارة [ نتفق معكم على التسوق من أي مرسى من مراسي الجزائر ] ما يشير الى الرؤية الوطنية الموحدة لدى الأمير ، وكيف يخاطبهم باسم وطن هو الجزائر .

#### 4 — مراسلة الأمير إلى السلطان العثماني عبد المجيد

بعبارات رقيقة مشبعة بسمو في الفكر الوطني ، وتواضع في النفس ، يقوده إلى الإستعطاف وطلب العون من السلطان العثماني، بهذه الكلمات : " ... من عبد القادر بن محي الدين ... إلى السلطان عبد المجيد خان ، أعانك الله على ما أولاك ، ... ونصرك على مرّ الدهور والأزمان ، وسلام على سيدي ورحمة الله وبركاته وبعد : إنّنا نخبر سيدنا ... أن العدو الكافر الغشوم ... ملك القرى والمدن ، واستولى على الأموال والذخائر والخزائن ... والمسلمون بهذا القطر ... أبصارهم لإعانتك وإمدادك طامعة ، وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة ... فأزل عنا ما أثقل الظهر ... " . (8)

في 25 شوال من رباط مستغانم 1257 (9)

وما استعمال الأمير عبد القادر في مراسلته هذه لعبارة " المسلمون بهذا القطر " الذي يعني به الجزائر إلّا تعبيراً جلياً لما يختلج في وجدانه من فكر وطني ، ورؤية ثاقبة لتحرير بلاده كاملة من الغزاة المحتلين .

#### 5 — مراسلة الأمير الى الصدر الأعظم للدولة العثمانية

جاء فيها : " إن هذا الكتاب من خديم المجاهدين بوطن الجزائر التي صار لغرباء الكفر ... ، وإنّا قد كاتبنا سيدنا فخر الزمان والمكان ... وطلبنا منه المدد بالعدة والعدد، وأخبرناه بأحوالنا ، وسردنا عليه

بعض أهوالنا ، فكن لنا لوجه الله ورسوله معيناً ... وأزل لهفتنا وأرحم ضعفنا ، فإن العساكر وافرة ، والجزائر عامرة ، فأدركونا بمددكم قبل الفوات .... "

#### شوال 1257 (10)

#### ختم عبد القادر بن محي الدين (11)

يراسل الأمير عبد القادر الصدر الأعظم للدولة العثمانية في سنة 1841 يطلعه على أحوال البلاد ، وما ألحقه الإستعمار بهم ، ويناشد دعمهم ومساعدتهم المادية لمقاومته ؛ في وقت أصبحت فيه كفة فرنسا تترجح لصالحها في مواجهتها لجيش الأمير بعد نقضها لمعاهدة " تافنة".

في هذه الظروف الحرجة التي كانت تمر بها المقاومة يظلُّ الفكر الوطني لدى الأمير بارزاً ، فهو يبتديء رسالته بعبارة [ إنّ هذا الكتاب من خديم المجاهدين بوطن الجزائر ] ، ويواصل حديثه كزعيم للشعب الجزائري ويحاول بكل العبارات أن يستجدي عطف الحكام العثمانيين لمساعدته في مواجهة الأستعمار ، وما ذلك إلاً دليلاً على عمق وطنيته وتعلّقه بوطنه الجزائر .

#### 6 — مراسلة الأمير للملكة الاسبانية(12)

يخاطب الأمير عبد القادر الملكة الإسبانية بهذه العبارات " : من ملك المسلمين عبد القادر بن محي الدين ، الى جلالة ملكة اسبانيا .... من المُسلّم به لدى جميع الناس ، أنّ الإسبان يؤلّفون أمة قوية ... بمقدورهم ملاحظة مقاومتنا ضد الفرنسيين ، والوضعية التي أنزلونا إليها .... لقد جرت العادة بين الملوك منذ العصور القديمة ، أن يصلحوا الخلافات التي تنشب بين إخوانهم، ويمنعوا الحرب بينهم كذلك "...

#### في 12 جمادي الأولى 1263 هـ (13)

إنّه في آخر أيام مقاومته يستحث الوساطة الاسبانية علّه يفوز بهدنة مع الفرنسيين تسمح له بتجميع قواته من جديد ، ورغم ذلك نجده يستعمل عبارة ملك المسلمين عبد القادر ليعبّر عن كنه ما تتطلّبه النخوة الوطنية من مقاوم يأبى حياة الخنوع ، ويؤكد للملكة أنه يمثل الوطن الجزائري ويقود شعبه المسلم .

#### 7 — رسالة من وزير الخارجية الإسباني باشيكو

الى وزير الحربية الإسباني مازاريدو

جاء فيها : ها هي ذي الرسالة التي لي الشرف أن أبعثها إليكم مع نسخة منقولة ، لتكونوا على علم وبينة ، إنها موجهة من طرف صاحبة الجلالة الى الرئيس العربي عبد القادر الذي يجب أن تحوّلوا له بواسطة حاكم مليلية ... ترغب صاحبة الجلالة أن تظهروا له بأنه من المهم جداً مواصلة وتنمية كل العلاقات الجيدة والممكنة مع الأمير ... يجب أن يعرف سموكم أنّ لنا فائدة كبيرة في الحصول على

صداقة القبائل العربية التي عبد القادر رئيس لها . كل ما يعمل في هذا الإتجاه سيكون عملاً جيداً ، ومرضياً لصاحبة الجلالة.

الله يحفظ حياة سموكم لسنوات عديدة . في 7 جوان 1847 (14)

ففي الأيام الأخيرة من عمر المقاومة كان الخارج ما يزال ينظر الى الأمير عبد القادر على أنه زعيم شعبه ورئيسه ، فههي ملكة اسبانيا من خلال وزير خارجيتها توصي وزير الحربية بضرورة التواصل وتنمية كل العلاقات الجيدة والممكنة مع الأمير ، ويصفونه برئيس العرب على أرض الجزائر ؛ وهم صادقون في ذلك .

## 8 — مراسلة من حاكم مليلية دوبينيطو الى الأمير عبد القادر

جاء فيها : " سيدي عبد القادر : توصلتُ بجوابكم عن الرسالة التي أرسلتها لكم مع رسالة الحكومة الإسبانية...أعمل كل جهدي من أجل إرضائكم في حدود إمكانياتي..." (15)

إنّ الردود التي كانت ترد على الأمير عبد القادر على رسائله لدليل صريح على الاعتراف بسلطانه وكيانه ووطنيته وبتزعمه لشعب ينتمي الى بلد اسمها الجزائر ، بل إنّ تلك الردود لا تقف عند هذا الحد بل تتعداه الى التبجيل والإكبار وعظيم الاحترام للأمير مثل ما عبّر عنه حاكم مليلية في مستهل رسالته بقوله : [ سيدي عبد القادر ] وفي آخرها بقوله : " ... وأعمل كل جهدي من أجل إرضائكم" ...

وفي هذه المراسلات ما يتجلّى من خلالها الفكر الوطني لدى الأمير في أسمى معانيه ، وذلك في أحلك الظروف وأصعبها وباعتراف ممن يكاتبوه .

## 9 — رسالة من الأمير عبد القادر الى محمد باشا

طالباً منه نياشين الى عدد من الأوربيين

بمدينة معسكر

" المقام العظيم قدره الجليل عزه وفخره وزير الأمراء وأمير الوزراء سعادة محمد باشا الأعظم .... فقد تلقيت بيد الكريم كتابكم وتلوته بكمال السرور ... وشكرت الله على صفاء مودتكم الحميدة ... ولما كان السيد جنانفي مسوار بيغي حاكم دائرة معسكر في بلاد الجزائر قد أقام من 1832 الى الآن ... وكان ذلك من أخلص المخلصين الينا والمظهرين تمام المحبة لدينا ، وله عناية وافية بإخواننا في الجزائر .... فنرجو مكافأة له على حسن هذه المعاملة والتفضل عليه بالنياشان ذي الشأن الفاخر والاحسان اليه . وبه تغنمون جزيل الشكر ... أدام الله مقامكم منهلاً لكل قاصد وموئلاً للمكارم والمحامد والسلام " .

من الشام في غرة ذي القعدة 1294 هـ

الداعي المخلص عبد القادر الحسيني الجزائري (16)

في هذه المراسلة نلمح صلة الأمير بأحوال وطنه بعد مغادرته له ، وتتبع أخبار شعبه حتى وهو في المنفى ، وكيف يطيب خاطره تجاه كل من يحسن إليهم حتى وإن كان من غزاة بلاده .

كان يتأثر بتأثر أبناء وطنه ، يحزن لحزنهم ، ويرتاح لراحته ، فهو جزء منهم ، وهم جزء منه في إطار واحد انصهرت فيه أفكارهم وأرواحهم وعواطفهم ، إنه الوطن ، إنها الجزائر -

هذا الوصال الذي كان يجمعه بشعبه وبكل ما يجري في وطنه — رغم بعد المسافات وحرقة الغربة — لم يفارقه طيلة حياته .

## 10 — مراسلة الأمير لمصطفى خزندار تونس

" إنه بلغنا دخول الفئة المقرانية واولاد يلس في دائرة دولتك السامية لانذين بحماها المنيع ، مستعطفين جنابها الرفيع في دفع ما حلّ بهم من عظيم الغصة ... فالمأمول من الجناب السامي تصديق ظنهم والإعتناء بشأنهم ... " (17)

عندما قامت ثورة المقراني سنة 1871 ، ولقيت عائلته وأتباعه وأنصاره ما لقوه من معاناة وملاحقات من طرف السلطات الاستعمارية في الجزائر ، وتوجه بعضهم الى تونس فارين بأنفسهم ؛ كان الأمير يتتبع أخبارهم بتفاصيلها وهو الجريح الكسير الغريب عن وطنه ، فنجدد يكاتب مصطفى خزندار تونس بكلمات يترجاه من خلالها الأخذ بأيديهم ورعايتهم . فقد فقدوا كل ما لديهم ، وتوجهوا الى تونس نجا من الهلاك .

كان كلامه هذا نابعاً من فكر مشدود بوطنه ، يأبى إلا أن يسهم في تخفيف المعاناة بكل ما يستطيع عن أبناء شعبه .

## مراسلة الأمير للأسقف دوبيش (18)

" ... كنت أحارب الفرنسيين ، وليس لي أمل أن أرى نهاية حميدة لي في هذه الحرب التي ابتدأت من سبتمبر ثلاث وثلاثين ، مع أنني كنت اعتقد أنني أقوم بالواجب الديني ، وحفظ بلادتي ، وأخشى أن أتلقى شبه الملامة من قومي الذين وثقوا بي ، وحلفوا أن لا يتركوني . وفي هذه المدة عرضت علي الحكومة الفرنسية مقدمات كثيرة ، وهي ترك السلاح مقابل شروط ، وزيادة على ذلك كان قد عرض المارشال بيجو مليوناً لضع السلاح فلم أقبل ذلك منه ، محافظة على عهدي " (19)

في مرحلة المنفى دائماً نجده يرسل أسقف الجزائر بكلمات توحى بصدق ما يتشبع به فكره من وطنية جزائرية لازمه نصب عينيه طوال حياته ، لم يزغ عنها ولم يحد ، ويحسب لها كل الحسابات . ليظل أميناً على ما أنتن عليه .

وهو ما أشار إليه في نهاية مقاومته مصوراً لنا واقعه الجهادي وما آل إليه معبراً عنه بهذه الكلمات : " ولا زلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية ، وأشمر على أقوى ساعد وبنان ، وأقضي حق الجهاد بالمهتد والسنان ؛ الى أن فقدت المعاضد والمساعد ، وفني الطارف من أموالني والتآل ، ودبت إلي من بني ديني الأفاعي ، واشتملت علي منهم المساعي ، والآن بلغ السيل الزبي ، فسبحان من لا يكيد كائد ، ولا يبيد ملكه . وكل شيء بائد " (20)

وهو ما يعبر عنه في الأبيات الموالية بقوله :

أجلي تأخر لم يكن \*\*\* يهواه ذلي والخضوع

ما سرت قط الى القتا \*\*\* ل وكان من أمني الرجوع

شيم الأولى أنا منهم \*\*\* والأصل تتبعه الفروع (21)

وطن لم يرغب عنه لحظة من لحظات عمره رغم بعده عنه ، فيمدح كل ما فيه معتزاً ومفتخراً ،  
راسماً له أجمل الصور لمن لا يعرفه ؛ فيتغنى بصحرائه ووهاده وفيافيه ، وطبيعة العيش فيه . ولأدّل  
على ذلك ما جاء على لسانه في قصيدته الشهيرة التي يصف فيها حياة البدو بحسنها وجمالها وطيب العيش  
فيها ، وما ذلك إلا تعلقاً بأرض إسمها الجزائر :

يا عاذراً لامريء قد هام في الحضر \*\*\* وعادلاً لمحِب البدو والقفر

لا تدمم من بيوتاً خفت حملها \*\*\* وتمدح من بيوت الطين والحجر

الحسن يظهر في بيتين رونقه \*\*\* بيت من الشعر أو بيت من الشعر

لو كنت تعلم مافي البدو تعذرني \*\*\* لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر (22)

وهو ما يشير الى تعلق الأمير عبد القادر بوطنه وبكل ما يحتويه من صحراء وقفار وحياة الحل  
والترحال والخيم ، من دون انبهار بحياة الحضر التي كانت محلّ تفاخر الغزاة يومها .

وفي الأخير يطيب لنا أن نختم الحديث عن الأمير عبد القادر بهذه الأبيات التي يلخص لنا فيها رموز  
شخصيته التي تظلّ محلّ فخرنا واعتزازنا جيلاً بعد جيل :

لنا في كل مكرمة مجال \*\*\* ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هـول \*\*\* وخضنا أبحراً ولها زجال

إذا عنها توانى الغير عجزاً \*\*\* فنحن الراحلون لها العجال (23)

## الإحالات

1 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، ج 1 ، ط 2 ، دار البقعة العربية ،  
دمشق 1964 ، ص ص 258 - 259 .

2 — يعني ملككم من الكلمة الفرنسية روا ROI .

3 — 22 سبتمبر 1835

4 — عبد الجليل التميمي : بحوث ووثائق في التاريخ المغربي - الجزائر وتونس وليبيا 1816- 1871 ، الطبعة الثانية،  
منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني ، زغوان 1985، ص ص 131 - 132 .

5 — يعني بذلك معاهدة ديمشال الموقعة بتاريخ 26 فيفريي 1834 .

6 — 22 سبتمبر 1835م

7 — عبد الجليل التميمي : نفس المرجع ص 132.

- 8 — عبد الجليل التميمي : نفس المرجع ص 135 — 139 .
- 9 — 10 ديسمبر 1841 م .
- 10 — ديسمبر 1841 .
- 11 — د. عبد الجليل التميمي: نفس المرجع ، ص 139 .
- 12 — د. يحي بوعزيز - د . ميكيل دوايبالزا / مراسلات الأمير عبد القادر مع إسبانيا وحكامها العسكريين بملييلية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1986 ص ص 49 - 50 .
- 13 — 28 أبريل 1847 م
- 14 — د. يحي بوعزيز - د ميكيل دوايبالزا / نفس المرجع ، ص 61 .
- 15 — مؤرخة في 12 جويلية 1847 أنظر د. يحي بوعزيز - د. ميكيل دوايبالزا : نفس المرجع ، ص ص 72 - 74 .
- 16 — د . يحي بوعزيز : الأمير عبد القادر ومشروع قناة قابس والبحر الافريقي ، الأصالة ، عدد 25 ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر 1975 ، ص ص 113 — 115 .
- 17 — د . يحي بوعزيز : موقف بايات تونس من ثورة الأمير عبد القادر ، الأصالة ، عدد 23 ، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية ، الجزائر 1975 ، ص 25 .
- 18 — دوبيش Dupuche ( 1809 - 1856 ) أول أسقف على الجزائر ، كان معاصراً لمقاومة الأمير .
- 19 — أنظر رسالة الأمير الى الأسقف دوبيش في تحفة الزائر ، ج 2 ، ص 524 .
- 20 — تحفة الزائر ، ج 2 ، ط 2 ، ص 498 .
- 21 — تحفة الزائر ، ج 2 ، ط 2 ، ص 499 .
- 22 — ديوان الأمير عبد القادر ، شرح وتحقيق ممدوح حقي ، ط 2 ، منشورات دار اليقظة العربية ، بيروت ، لبنان 1964 ، ص 44 .
- 23 — فؤاد صالح السيد: الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985: ص 195 .